520747 ـ ما النصيحة لطالب العلم عند دراسة المسائل الفقهية؟

السؤال

أنا طالب في كلية الشريعة ما الذي يجب عليّ الاعتناء به عند دراسة المسائل الفقهية؟

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

دراسة الفقه من أجلِّ العلوم وأنفعها؛ لأن بها يعرف المسلم ما أوجب الله عليه، وما حرمه عليه، وما تصح به عبادته ومعاملته ونكاحه وسائر شؤون حياته.

وينبغي لمن أراد دراسة الفقه أن يعتني بجملة أمور:

أولًا: تصحيح النية

فيقصد بدراسة الفقه معرفة حكم الله تعالى، والعمل بما تعلم، ورفع الجهل عن نفسه، ثم نفع غيره بحسب قدرته، لا مجرد الجدل، أو الانتصار للنفس، أو الترفع على الناس.

ثانيًا: البداءة بما يحتاج إليه

فيبدأ بأحكام الطهارة، والصلاة، والصيام، والزكاة إن كان من أهلها، ثم ما يحتاج إليه من أحكام المعاملات، والنكاح، والطلاق، والبيوع، بحسب حاله.

ولا يليق بطالب مبتدئ أن يشتغل بدقائق الخلاف قبل أن يضبط ما تصح به عبادته ومعاملته.

ثالثًا: ضبط المسألة الفقهية من جهاتها الأساسية

ينبغي لطالب الفقه، عند دراسته لكل مسألة فقهية، أن يعتني بأمور أربعة:

الأول: تصوير المسألة، وذلك بمعرفة صورتها في الواقع، وحقيقتها، وظروفها، وما يدخل فيها وما لا يدخل؛ فإن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، وكثير من الغلط في الفقه منشؤه عدم ضبط صورة المسألة.

الثاني: معرفة حكم المسألة، هل هو الوجوب، أو التحريم، أو الاستحباب، أو الكراهة، أو الإباحة؟ وهل الكلام في صحة أو بطلان؟ أو في شرط أو سبب أو مانع؟ ونحو ذلك.

الثالث: معرفة دليل المسألة، هل دليلها آية من كتاب الله، أو حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما درجة الحديث؟ أو إجماع، وهل هو ثابت؟ أو قياس، وهل هو قياس صحيح؟ أو قاعدة شرعية معتبرة؟

الرابع: معرفة وجه الاستدلال، أي: كيف أُخذ هذا الحكم من هذا الدليل؟ هل بطريق النص، أو الظاهر، أو العموم، أو المفهوم، أو القياس، أو غير ذلك من طرق الاستدلال؟

فإذا اعتنى طالب الفقه بهذه الأمور الأربعة في كل مسألة، كان أضبط للمسائل، وأبعد عن الحفظ المجرد الذي لا يثمر فهمًا.

ثم تأتي بعد ذلك مرحلة أوسع، وهي معرفة أوجه الاتفاق والاختلاف في المسألة، ومن خالف فيها، وسبب الخلاف، ودليل كل قول، وكيفية الترجيح بين الأدلة. وهذه مرحلة تناسب الطالب المتقدم، لا من كان في بداية الطلب.

رابعًا: الدراسة على شيخ متقن

الأصل في العلم أن يؤخذ عن أهله، لا من القراءة المتفرقة وحدها، ولا من المقاطع المختصرة، ولا من الفتاوى المتناثرة.

فينبغي لطالب الفقه أن يحرص على شيخ متقن، له عناية بالفقه، وفهم لأدلته، ومعرفة بمآخذ العلماء، مع ديانة وإنصاف. وقد قيل: من دخل في العلم وحده خرج وحده؛ لأن العلم صنعة، وكل صنعة تحتاج إلى معلم حاذق.

خامسًا: التدرج وعدم الاستعجال

العلم لا يؤخذ دفعة واحدة، ومن طلبه جملة فاته جملة، وإنما يُنال شيئًا فشيئًا، مع الصبر والمراجعة والتكرار.

ولهذا كان من أنفع الطرق في دراسة الفقه: البداءة بمتن مختصر في مذهب معتبر، يضبط فيه الطالب أبواب الفقه ومسائله، ثم يقرأ أدلته، ثم يتوسع بعد ذلك في الخلاف العالي، ومعرفة مآخذ الأقوال، وقواعد الترجيح.

ودراسة مذهب معين في البداية وسيلة لترتيب العلم وضبط المسائل، أما من بدأ بالخلاف والترجيح قبل أن يضبط أصل الباب، فإنه غالبًا يتشتت ولا يحسن الفهم.

سادسًا: احترام العلماء وترك التعصب

ينبغي لطالب الفقه أن يعرف قدر الأئمة، وأن الخلاف بينهم في كثير من المسائل مبناه على الاجتهاد، واختلاف فهم الأدلة، أو ثبوت الحديث، أو الجمع بين النصوص.

فلا يتعجل في تخطئة العلماء، ولا يجعل أول طلبه البحث عن الزلات، ولا يقول في كل مسألة: هذا هو الحق، وهذا باطل، وهو لم يعرف مأخذ القول ولا دليل صاحبه.

وفي الوقت نفسه لا يتعصب لمذهب أو شيخ تعصبًا يحجبه عن الدليل، بل يتعلم بانضباط، ويتدرج، ويعرف قدر نفسه.

سابعًا: الحذر من التصدّر قبل التأهل

ليس كل من قرأ كتابًا، أو حضر دورة، أو حفظ متنًا صار مفتيًا للناس، فالفتوى تحتاج إلى علم بالنصوص، ومعرفة بأقوال العلماء، وفهم للواقع، وبصيرة بالمآلات.

فإن سُئل الطالب عما لا يحسن، فليقل: لا أدري، أو اسألوا أهل العلم. وهذا من العلم والورع، وليس نقصًا.

قال الإمام مالك بن أنس: "ما أفتيت حتى شهد لي سبعون أني أهل لذلك". حلية الأولياء (6/ 316)

وعن خلف بن عمرو قال: سمعت مالك بن أنس يقول: ما أجبت في الفتيا حتى سألت من هو أعلم مني: هل يراني موضعا لذلك؟ سألت ربيعة، وسألت يحيى بن سعيد فأمراني بذلك.

فقلت له يا أبا عبد الله فلو نهوك؟ قال: كنت أنتهي، لا ينبغي لرجل أن يرى نفسه أهلا لشيء حتى يسأل من هو أعلم منه". حلية الأولياء (6/ 317)

ثامنًا: العمل بالعلم

المقصود من الفقه العمل، فمن درس الطهارة فليحسن طهارته، ومن درس الصلاة فليحافظ عليها بخشوعها وسننها، ومن درس البيوع فليجتنب الحرام والشبهات.

ومن لم يظهر أثر العلم على عبادته وخلقه وورعه، فليتهم نفسه، وليجدد نيته.

والخلاصة:

ينبغي لمن أراد دراسة الفقه أن يبدأ بما يحتاج إليه من أحكام عبادته ومعاملته، وأن يدرس على شيخ متقن، وأن يتدرج في الطلب بقراءة متن مختصر ثم أدلته، ثم يتوسع بعد ذلك في الخلاف والترجيح.

وعند دراسة كل مسألة يعتني بتصويرها، ومعرفة حكمها، ودليلها، ووجه الاستدلال منها، ثم إذا ترقى نظر في الخلاف وأسبابه وأدلته. وبهذا يكون طلبه للفقه مؤصلًا، بعيدًا عن التشتت والتعجل.

والله أعلم.